الفصل الثاني

العقل الميكانيكي

«للدماغ عضلات تمكِّنه من التفكير كما للساقَين عضلات تمكِّنهما من المشي».

لاميتر، الإنسان والآلة

ما ثمن أن يصبح المرء مفكرًا؟ يقال أحيانًا إن الفكر يتطلب نوعًا من الوسيلة اللامادية ـ روحًا أو عقلًا لا ماديًّا، ومع أن من شأن هذه أن تكون نظرة حصيفة إلى الفكر، فإن مؤيديها المعاصرين قليلون في العلم والفلسفة، فمعظم المنظّرين المعاصرين يدعمون رواية فيزيائية لقصة الفكر، رواية ترى التفكير قدرة عقلية لا يستطيع امتلاكها سوى مخلوقات مادية. وسواء أكنا نحن أنفسنا مخلوقات مادية خالصة أم لا، فلا يوجد أي شيء في طبيعتنا بوصفنا مفكرين يشير إلى غير ذلك.

ثمة ثلاثة دوافع عامة للنزعة الفيزيائية؛ يتعلق الأول بقابليتها لتفسير العلاقات البينية الحاصلة بين حالات الدماغ وحالات الفكر، وسواء أكانت منطوية على التغييرات الطفيفة نسبيًّا والناجمة عن تناول الكافيين أم على

obeikandl.com

التغييرات الأكثر جذرية إلى حد ما والمترتبة على الجلطة أو ألوان أخرى من الخلل الدماغي، فإننا نعلم أن حالة الدماغ حميمية الترابط مع قدرتنا على التفكير، وعن طريق استغلال مثل هذه العلاقات البينية راح العلماء يحصِّلون القابلية لتحري أفكار المرء عن طريق رَوْز حالاته الدماغية، كما سنرى في الفصل الآتي. وأبسط تفسيرات مثل هذه الترابطات هو أن الأفكار متماهية مع ـ أو أقله، متحققة عبر ـ حالات الدماغ.

يوجد دافع ثانٍ للنزعة الفيزيائية ذو علاقة بقدرتها على تسويغ الدور السببي للأفكار؛ فالأفكار مترتبة على أحداث فيزيائية من ناحية وتضطلع في الوقت نفسه بوظيفة سبب لأحداث فيزيائية من ناحية ثانية، فنمط اصطدام الضوء بالشبكية قد يدفع المرء إلى الاعتقاد بأن أحدًا قد دخل الغرفة، ومن شأن هذا أن يقود المرء إلى مد يده مصافحًا؛ فتصوُّرُ الأفكار حالات فيزيائية تبعث الأمل في استيعاب الدور السببي للأفكار، فيما تبقى كيفية احتمال صيرورة التفاعل بين الأفكار والأحداث الفيزيائية أمرًا ممكنًا إذا تحققت الأفكار بوسيلة لا مادية أقل وضوحًا.

يتمثل سبب ثالث لمناصرة النزعة الفيزيائية بكونها عادلة مع استمرارية الطبيعة، فنحن نعلم أن مخلوقات قادرة على التفكير خرجت من أرحام مخلوقات فيزيائية خالصة مفتقرة إلى مثل هذه القدرة، ومع أن المرء لا يستطيع إنكار إمكانية انطواء هذه العملية على انبثاق نوع من أنواع الوسيط اللافيزيائي، فإن ما هو معقول أكثر بالتأكيد هو افتراض أن تطور المخلوقات المفكِّرة يمكن تفسيره بالإحالة على تغييرات حاصلة في بنية منظومات غير حيَّة.

وهكذا، لدينا ثلاثة أسباب وجيهة لتأييد النظرة الفيزيائية- المادية إلى الفكر. أيٌّ من هذه الأسباب ليس حاسمًا وحده، أما مجتمعة فهي توفر قضية قوية داعمة لأخذ النظرة الفيزيائية ـ المادية إلى الفكر مأخذ قدر رفيع جدًّا من الجديّة.

نظرية الفكر الحسابية (CTT)

أن تتوافر أسباب مؤيدة للنظرية القائلة بأن على الفكر أن يكون ظاهرة فيزيائية خالصة أمر، أما امتلاك رواية لقصة مدى قدرة الفكر على أن تكون ظاهرة فيزيائية خالصة فأمر آخر تمامًا، مع أنها تتَّخذ صورًا كثيرةً، لا توجد إلا رواية واحدة لكيفية توفير إمكانية تحقيق الفكر في نظام فيزيائي خالص، وهذه الرواية تمارس التجارة تحت عناوين متنوعة ـ نظرية العقل التمثيلية، رمز فرضية المنظومات ـ إلا أنني سأشير إليها بوصفها نظرية الفكر الحسابية.

لشرح نظرية (CTT) علينا أولًا أن نستحضر بعض المصطلحات، دعونا نبدأ بصفة شكلية (أو إعرابية نحوية)، وأي صفة شكلية هي صفة يتحلى بها الرمز جراء شكله، ومحله من الإعراب، إنها صفة لا تتحسس بها سوى منظومة فيزيائية خالصة، وبعض الصفات الأكثر رواجًا هي صفات شكلية، عاينوا الطرق المختلفة التي يمكن اعتمادها لكتابة كلمة قرد.

قرد قرد قرد

رموز كلمة قرد الثلاثة هذه تتباين على أصعدة ذات شأن، غير أن كلًّا منها أنموذج يمكن تعرُّفه لذلك الرمز الإنجليزي؛ فأشكال هذه الكلمات

هي صاحبة الفضل في أنها جميعها أمثلة لكلمة قرد الإنجليزية. تستخدم اللغة المكتوبة صفات شكلية، واللغة المحكية تستخدم الصفات الصوتية ـ السمعية، ولغة الرموز تستخدم الصفات الحركية، مع عدم وجود أي قيود مبدئية على جملة أنواع الصفات الفيزيائية التي تستطيع الاضطلاع بوظيفة صفات شكلية. بوسع المرء أن يمتلك جهازًا تمثيليًّا تضطلع فيه الشحنةُ الكهربائية، أو درجة الحرارة، أو الوزن بوظيفة صفات شكلية، مميزة لرموز هذا النوع عن رموز ذلك النوع.

من الممكن مقارنة الصفات الشكلية لأي رمز بصفاته الدلالية ذات العلاقة بمعاني الألفاظ التي تخص الشيء (الغرض، الصفة، العلاقة)، الذي يشير إليه الرمز أو يعنيه. (تبقى القصة أعقد قليلًا ـ بالفعل ـ من هذا؛ لأن علينا أن نسلم بأن الرموز قد تحمل صفات دلالية مختلفة حتى وهي تشير إلى الموضوع نفسه، غير أن ذلك التعقيد لا يهمنا هنا). فللرمزين قرد وموز بالإنجليزية مضمون قرود وموز على التوالي؛ لأنهما الموضوعان اللذان يدل عليهما هذان الرمزان، لاحظوا أن بوسع رمزين امتلاك صفتين شكليتين متباينتين للمضمون ذاته، فكلمة مونكي (monkey) الإنجليزية ونظيرتها الفرنسية سانغ (sing) ـ مثلًا ـ تعنيان القرود، إلا أنهما لا تتوفران على الصفات الشكلية ذاتها؛ لأن لهما هيئتين مختلفتين.

يكفي هذا على صعيد المصطلحات؛ ما الذي تقوله نظرية الفكر الحسابية فعلًا؟ يمكننا أخذ النظرية بوصفها مزاوجة توفيقية بين زعمين؛ واحد عن طبيعةالأفكار وآخر عن طبيعة التفكير (عملية التفكير)، وباختصار فإن نظرية الفكر الحسابية تزعم أن الأفكار جمل في لغة الفكر،

وتدَّعي أن التفكير ينطوي على انتقالات مضبوطة شكليًّا بين جمل في لغة فكرية. تعالوا نفصِّلْ هاتين الفكرتين.

ما الذي يعنيه قولُك إن الأفكار ليست إلا جملًا بلغة فكرية؟ عاينوا فكرة أن لدى محمود قردًا، تمامًا كما هي جملة لدى محمود قرد مؤلفة من رموز لغوية ذات مضامين خاصة ـ فكلمة محمود تدل على محمود، وكلمة قرد تدل على القرود، مثلًا ـ فإن نصير لغة الفكر يزعم أن فكرة امتلاك محمود لقرد مؤلفة أيضًا من رموز ذات مضامين خاصة، والتفكير بأن لدى محمود قردًا ينطوي على رموز عقلية ذات دلالة مشيرة إلى كل من محمود، والقرود، وعلاقة الامتلاك بطريقة تمكِّن هذه الرموز من أن تشكِّل تمثيلًا منظَّمًا يتضمَّن معنى (لدى محمود قرد).

من شأن عبارة لغة الفكر أن توحي بأن أنصار هذا الموقف ملتزمون بفكرة أن على البنية الإنشائية للفكر أن تُنمذج على نظيرتها اللغوية، غير أن المرء يستطيع أن يؤيد نظرية الفكر الحسابية دون الالتزام بوجهة النظر تلك، على الرغم من أن أحد أبرز وأهم مناصري فرضية اللغة الفكرية، أعني الفيلسوف الأمريكي جيري فودور (Jerry Fodor)، يصرُّ بالفعل على زعم أن البنية الإنشائية للفكر شبيهة فعلًا باللغة، ويستطيع المرء، بدلًا من ذلك، أن يرى أن بنية الفكر أكثر قُربًا من بنية الخرائط والرسوم وليست استثنائية الشبه باللغات؛ بعبارة أخرى يستطيع نصير هذه النظرية أن يقول إن جرعة الإشارة إلى لغة الفكر يجب أن تُؤخَذ مع حَصْوة ملح كبيرة (بقدر غير قليل من التحفُّظ والشك أو مع عصرة ليمون قوية). فما

تشترطه هذه النظرية هو أن للفكر بنية إنشائية، بما يتيح لأجزاء أي فكر فرصة المساهمات المستقلة في معناه.

الفكرتان الموجزتان للتو تشكِّلان جوهر نظرية الفكر الحسابية، إلا أن عنصرًا إضافيًّا يجب الإتيان على ذكره قبل الانتقال إلى مسألة عملية التفكير؛ فللأفكار- كما أسلفنا في الفصل السابق- مواقف (أو أنماط) إضافة إلى المضامين. يمكن لعبَّاس أن يعتقد بأن محمودًا يملك قردًا؛ ويمكن لمجاهد أن يقصد أن لدى محمود قردًا؛ ويمكن لأنفال أن تكتفي بمجرد تمني امتلاك محمود لقرد، وهكذا فإن نظرية الفكر الحسابية ستكون بحاجة إلى بيان ما إذا كانت بنية رمزية معينة دالة على إيمان أم على قصد أو أمل. والحلول الأكثر رواجًا وشعبية لهذه المسألة ترى أن العنصر الاتجاهي لأي فكرة هو موضوع دوره الوظيفي - أسلوب تزاوجه مع بنى رمزية أخرى لريادة سلوك الشخص المعني. وأنواع السلوك المعطوفة على الاعتقاد بأن محمودًا يملك قردًا تختلف عن تلك المعطوفة على تقصد امتلاك محمود لقرد، أو على مجرد تمني ذلك، وما يعنيه كون الأمر اعتقادًا (بدلًا من أمنية أو قصد) بالنسبة إلى فكر محمود هو أن يبادر إلى التصرف بالانخراط في آيات السلوك تلك بدلًا من سواها.

تعالوا نلتفت إلى قصة عملية التفكير الواردة في نظرية الفكر الحسابية. ما الذي نعنيه حين نقول إن التفكير ينطوي على نقلات محكومة شكليًّا بين جمل في أي لغة فكرية؟ افترضوا أن عندي فِكْرَتَيْ أن البشر جميعهم فانون، وأن عدنان إنسان، وأن هاتين الفكرتين تفضيان بي إلى تشكيل الفكرة التي تقول: عدنان فانٍ. تتولى النظرية مهمة تفسير هذه

النقلة الفكرية بالإحالة على الصفات الشكلية للرموز (أو لمجمعات الرموز، وهذا أفضل) المنخرطة في العملية، لو توافرنا على آلية ذات حساسية إزاء الصفات، لبات انتقالنا من الفكرتين الأوليين إلى الفكرة الثالثة دون معرفة أي شيء عما تعنيه هذه الأفكار (أي دلالاتها) مضمونًا، لعل الفكرة هي أن آلية الفكر تعمل بطريقة تكاد تكون الطريقة ذاتها التي تعمل بها أداة قراءة العناوين الآلية لدى مكتب البريد. مع أن هذه الآلة لا تعرف أي شيء عن السيد فراس أو الآنسة روان، فإنَّها قادرة على ضمان استلامهما لبريديهما؛ لأنها حساسة إزاء الفروق الشكلية بين اسمي سامي وخالد. من الجدير تذكره أن الفيلسوف جون هوغلاند (John Haugeland) قال: «إذا اهتممت بالدلالة، فإن الشكل يهتم بنفسه».

جوهريًّا، تلك هي نظرية الفكر الحسابية فالفكرة ليست بإيجاز، إلا أن الأفكار ما هي إلا بُنى رمزية، وأن عملية التفكير تنطوي على توظيف هذه البنى من منطلق صفاتها الشكلية، من غير الواضح- بالتأكيد- إن كانت عملية التفكير توحي بنوع من التلاعب بالرموز، غير أن النظرية لا تطلق أي مزاعم حول ما يوحي به فعل التفكير. (لاحظنا في الفصل السابق أنه لا يوجد إلا القليل من التوافق حول ما توحي به عملية التفكير). لعل نظرية الفكر الحسابية هي قصة مدى قدرة ابتكارات فيزيائية خالصة على أن تكون عناصر مفكِّرة.

داخل الغرفة الصينية

مع أن نظرية الفكر الحسابية وجهة نظر نافذة، فإنها ليست بلا عيوب، وبالفعل فإن انتقاد فكرة إمكانية تفسير الفكر من منطلقات ميكانيكية بحتة يعود إلى فيلسوف القرن السابع عشر المعروف غوتفريد لايبنتز (Gottfried Leibniz)، الذي جادل في أن أي كائن حساس أو مفكر ليس شيئًا ميكانيكيًّا مثل ساعة أو مطحنة؛ فالمرء لا يستطيع الإحاطة بالحجوم والأشكال والحركات بإذابتها ميكانيكيًّا في بوتقة واحدة بغية إنتاج شيء يفكر.

أما وريث لايبنتز الفكري على هذا الصعيد، فهو الفيلسوف جون سيرل (ohn Searle) الذي كان اعتراضه المتمثل بـ (الغرفة الصينية) على نظرية الفكر الحسابية مؤثرًا.؛ إذ يطالب بأن تفترض أنك موضوع في غرفة يجري إمطارها بوابل من الرسائل الصينية. (لأغراض الاختبار الفكري يفترض سيرل أنك لا تفهم اللغة الصينية، ما يُبقي الرسائل بلا معنى بالنسبة إليك. يستطيع القراء الذين يعرفون الصينية فعلًا أن يعدِّلوا من القصة بالطريقة المناسبة)، ومع أنك لا تفهم معاني الرسائل فإنك أمام لوحة إيضاحية عملاقة، تتولى رسم خارطة كل من الرسائل التي تتلقاها مترجمة إياها إلى رد مناسب. إذا تلقيت الصيغة الصينية- مثلًا- لسؤال: ما الذي تأكله القرود؟ فإن اللوحة الإيضاحية توجهك نحو النظير الصيني لكلمة موز، أو إلى رد معقول آخر.

يزعم سيرل أنه ليس من شأن الرموز أن تغدو كيانًا مفكرًا على الرغم من أن أحدًا في الغرفة الصينية كان قادرًا على توظيف تلك الرموز

والتلاعب بها بالطريقة المناسبة؛ يقول سيرل إن ما يكشف عنه هذا هو أن مجرد التلاعب بالرموز لا يفي الفكر حقه ـ فالفكر الأصيل يشترط وجود ما هو أكثر من ذلك. إلا أن نظرية الفكر الحسابية يجب أن تكون زائفة؛ لأنها تساوي بين الفكر والرمز. (رواية سيرل الخاصة لقصة ما تنطوي عليه عملية التفكير مراوغة بعض الشيء، ولا يوجد ما يدعو إلى جعلها تعوقنا عند هذا المنعطف).

بصورة عامة، نستطيع أن نصنِّف جملة الردود المختلفة التي تصدت لاعتراض سيرل المعروف باسم الغرفة الصينية في فئتين، بعض الردود تنتقد افتراض سيرل لاستحالة وجود فكر في الغرفة الصينية، في حين أن ردودًا أخرى ترى أنه توجد ـ رغم احتمال خلو الغرفة الصينية من الفكر ـ نقاط تنافر ذات شأن بين سيناريو الغرفة الصينية من جهة والتصور الفكري المتمثل بنظرية الفكر الحسابية من جهة أخرى، بما يمكِّن المرء من تأييد النظرية دون الالتزام بزعم أن بوسع عملية التفكير أن تتم في الغرفة الصينية. دعونا، إذن، نعاين هذين النمطين من الردود.

هل ثمة ما يدعو إلى تأييد فرضية سيرل القائلة بعدم حصول أي فكر أصيل في الغرفة الصينية؛ إذ ليس هناك إلا نوعًا من التلاعب بالرموز؟ يمكن لأي ناقد أن يجادل أن الحدس الذي يوحي بأن سيناريو الغرفة الصينية خالٍ من الفكر ناشئ لأننا نركز على الجوانب الخطأ من هذا السيناريو. نتخيل أنفسنا ـ طبيعيًّا ـ في وضع الشخص القابع في الغرفة الصينية عاكفًا على التلاعب بحشد من الخربشات دون أي استيعاب لما تعنيه هذه الخربشات، إلا أن خصم سيرل يقول إن نظرية الفكر الحسابية

ليست ملتزمة بفكرة وجود دمية أو قزم يفهم معاني الرموز التي يوظفها. لعل الفكرة الكامنة في أساس نظرية الفكر الحسابية هي أن الرموز لا تتعرض للتلاعب أو التوظيف إلا بالاستناد إلى صفاتها الشكلية ـ وخلاصة قضية القصة هي أن توظيفها لا يشترط فهمها. (من شبه المتعذر على نظرية الفكر الحسابية ادعاء توفير أي تفسير لعملية التفكير إذا ما تبين أن المرء بحاجة إلى التفكير كي يتمكن من توظيف الرموز في لغة الفكر)؛ فالمعيار المناسب للمفكر لا يتمثل بالشخص القابع في الغرفة الصينية بل بالغرفة الصينية كلها، وبالاستناد إلى كل ما رأيناه حتى الآن لا يوجد ما يدعو إلى إنكار أن المنظومة بجملتها تستطيع أن تفكر. (لهذا السبب، غالبًا ما يُعرف هذا الرد باسم رد المنظومات).

من الممكن تحريض رد المنظومات أكثر عن طريق النظر إلى ما إذا كان الشخص الموجود في الغرفة الصينية ـ أو الغرفة الصينية كلها بالأحرى، توخيًا للمزيد من الدقة ـ قادرًا على اجتياز ما يعرف باختبار تورنغ (Turing test) بنجاح. واختبار تورنغ هذا اقترحه آلان تورنغ، الذي رأى أن من الواجب عَدُّه شرطًا كافيًّا لامتلاك الفكر. (لم يقترح تورنغ وجوب عد الأمر شرطًا ضروريًّا للفكر). من حيث الجوهر، فإن اختباره يتم على النحو الآتي: افترضوا أن هناك غرفتين إحداهما تؤوي إنسانًا طبيعيًّا والأخرى فيها الهدف، الذي هو كيان مشكوك في كونه كيانًا مفكرًا. الغرفتان موصولتان بوساطة قناة اتصال مع محقق يتولى مهمة الاستجواب مكلف باكتشاف أي الغرفتين تؤوي الإنسان وأيهما فيها الهدف، حيث يُسمح للمحقق بأن يطرح أسئلة من أي نوع على الطرفين، ويمكن قول إن الهدف

قد نجح في اختبار تورنغ، وبعد جولة مطولة من الاستجواب يتم إعلان عجز المحقق عن تحديد الغرفة التي تؤوي الهدف.

هل من شأن شخص في الغرفة الصينية أن يكون قادرًا على اجتياز اختبار تورنغ؟ ربما لا ـ أقله لا إذا كان النجاح في الاختبار يشترط قيام المرء بتقديم أجوبته على أسئلة المحقق في ظل ظروف الزمن الفعلي؛ فالشروط الحسابية أو الاحتسابية المفروضة على استخدام لوحة توضيحية لإجراء حديث أنموذجي هائلة، وقد لا تتوافر إمكانية هندسة أي سيناريو غرفة صينية مؤهلة لمجاراة إنسان عادي. أما إذا أزحنا شروط أجوبة الزمن الفعلي، فعندئذٍ لا يبقى ما يدعو إلى إنكار احتمال نجاح أحدهم في الغرفة الصينية في اختبار تورنغ على ما يبدو. أليس هذا ما جرى تصميم اللوحة التوضيحية بالتحديد من أجل ضمانه، آخر المطاف؟!

ولكن هل يتعيَّن علينا أن نعد اجتياز اختبار تورنغ إضفاءً للشرعية على ادعاء كيان معين أنه مفكر؟ أعتقد لا. وفي الحقيقة جادل أساتذة تنظير كثيرون قائلين إن اختبار تورنغ شديد الضعف، وإنَّ شيئًا آخر مطلوب للوقوف على الفكر الصحيح. ونستطيع تفسير ما قد يكونه ذلك الشيء (الآخر) بالنظر في التنافر بين بنية الغرفة الصينية وقصة الفكر التي ترويها نظرية الفكر الحسابية (ن ف ح).

من ملامح سيناريو الغرفة الصينية المركزية استحضاره لوحة توضيحية بما يؤدي إلى إلغاء وجود بنية ذات شأن على الطريقة التي تعتمدها المنظومة في إنجاب (المُخْرَج) الذي تولِّده؛ افترضوا أن الشخص الموجود في الغرفة الصينية (لنسمِّه ماكس) طُرح عليه السؤالان الآتيان

(مكتوبان بالصينية): ما الحيوان الذي يكثر استخدامه للحمل والجر؟' وما الحيوان المتحدِّر من حمار الوحش الإفريقي؟' سيردُّ ماكس بالتشاور مع لوحته التوضيحية، وسيكتشف أنه في الحالتين تم توجيهه نحو الكلمة الصينية التي تعني حمار، إلا أن ما تخفق هذه العملية في أخذه بالحسبان هو واقع أن الجملتين كلتيهما تشتملان على مفهوم مشترك ـ مفهوم (حمار). أما أحد الأشياء التي يشترطها الفكر، فهو التقاط المرء المساهمة المميزة المتمثلة بكون كل من مفهومي الفكرة المؤسسين مشيرًا إليه، ولكي يلتقط المرء بالفعل فكرتي أن الحمار يُستخدم في الحمل والجرِّ، والحمار متحدِّر من حمار الوحش الإفريقي، فإن عليه أن يتفهَّم أن للفكرتين موضوعًا مشتركًا واحدًا ـ الحمار تحديدًا.

غير أن تفهمًا لهذا الواقع ـ أو لأي واقع مثله في الحقيقة ـ ليس حاضرًا في الغرفة الصينية، فلا ماكس ولا المنظومة التي وضع فيها بحاجة إلى تمثيل ـ ولو ضمنًا ـ أنَّ الفكرتين المذكورتين قبل قليل هما كلتاهما عن قرود؛ بكلمات أخرى، لوحة التوضيح تعمل وفق مسار لا إنشائي كليًّا، في حين أن الفكر الأصيل ـ بالمقابل ـ هو فكر إنشائي، هذا الواقع مستوعب في نظرية الفكر الحسابية؛ لأن جملًا مختلفة في لغة الفكر ستتوافر على عناصر مشتركة، وبفضل هذا الواقع نجد أن مفكرين حقيقيين قادرون على فهم جمل لم يسبق لهم أن صادفوها، مثل: قلَّما تمتطي القرود دَرَّاجات أحادية. بالمقابل، أي شخص معتمد على قيام لوحة توضيحية ما بتوليد سلوكه، سيكون محصورًا بالمعلومات الواردة في اللوحة، وسيخفق في إدراك مغزى المُدخَل الجديد.

قادرون نحن- بالتأكيد- على تعديل سيناريو الغرفة الصينية بما يؤدي إلى إغناء ردود ماكس، بواقع أن القرود تحب الموز والقرود تعيش على الأشجار يتوفران على مكوِّن مشترك ألا وهو مفهوم (قرد). أما بعد قيامنا بهذا التعديل، فإن غياب الفكر والفهم الأصليين الغائبين عن الغرفة الصينية لم يعد جليّ الوضوح. (مرة أخرى، لسنا بحاجة إلى افتراض أن ماكس يفهم ما تعنيه الرموز، بالأحرى لن يكون الفهم إلا في إطار المنظومة بصورة كلية). لقد أدخلنا في الغرفة الصينية ترتيبات تقطع شوطًا باتجاه التقاط حقيقة أن الفكر أداة كونية شاملة، يمكن استخدامها في الأوضاع جميعها.

تسويغ مضامين الفكر

يتعلق تحدٍّ خطير آخر لنظرية الفكر الحسابية بمهمة تفسير كيفية اكتساب رموز لغة الفكر مضامينها. ما الأساس الذي يسوِّغ معنى أي فكرة؟ ما الذي يجعل رمز (قرد) العقلي دالًا على قرود بدلًا من الحلوى أو الدراجات البخارية، أو الجرابيات، مثلًا؟

أحد الاقتراحات يناشد سمات عائدة إلى لغات طبيعية؛ افترضوا أن أداة أحد الأشخاص الفكرية هي لغته الأصلية ببساطة. إذا كانت البولونية هي لغتكم الأصلية، فإن من شأن البولونية أن تضطلع أيضًا بوظيفة وسيلتكم الفكرية، ووفقًا لهذه الطبعة من نظرية الفكر الحسابية، من شأن الرموز في لغة الفكر أن تكتسب مضامينها بالطريقة التي تعتمدها رموز اللغات الطبيعية ـ أي أصوات معينة، علامات على الورق، حركات ـ في ذلك

إلى حد كبير. وكيف تكتسب رموز اللغة الطبيعية مضامينها؟ عن طريق الأعراف؛ فاللغة الإنجليزية ـ مثلًا ـ تستخدم عرف أن كلمة قرود دالة على قرود، ولا يوجد ـ بالتأكيد ـ أي عرف يقول إن حالة دماغية خاصة تدل على القرود مثل ما تفعل كلمة قرد، لعل الفكرة هي ـ بالأحرى ـ أن الفكرة تتخذ صورة كلام داخلي (أو كتابة داخلية وتوقيع داخلي)، وآليات الفكر تستطيع أن تنتحل جملة الأعراف التي تحكم اللغة المعنية التي يتعامل معها المرء (كلامًا، وكتابة، وتوقيعًا).

إلا أن هذا الحل لمشكلة تسويغ المضامين لا يحظى إلا بقدر قليل نسبيًّا من التأييد، ومع أن منظّرين كثيرين يجيزون أن أنواعًا معينة من الفكر ينطوي على استيعاب اللغة الطبيعية، فإن من المسلَّم به على نطاق واسع ـ أقله بالنسبة إلى الجزء الأكبر ـ أن الرموز التي تؤسس للغة الفكر ليست مستمدة من اللغات الطبيعية، ومن هذا المنطلق فإننا لا نفكر بالبولونية أو البرتغالية بل بالعقلية (لغة الذهن). لوجهة النظر هذه حافزان رئيسان. يوجد أولًا ـ كما سنرى في الفصل الرابع ـ ما يشير إلى أن مخلوقات غير لغوية (عجماء) قادرة على أنواع معينة من التفكير، وإذا كان الأمر كذلك فإن لغة المرء الفكرية لا يمكن أن تتساوى مع لغته الطبيعية، ويتمثل سبب ثانٍ لوجهة نظر أن اللغة الفكرية لا تستطيع أن تكون لغة طبيعية، بأن تفكيرًا من نوع ما مطلوب لتعلم الأعراف والتقاليد التي تحكم اللغات الطبيعية. ليس أي من خَطَّيْ الجدال هذين خاليًا من التضارب، غير أنهما أقنعا ـ مجتمعين ـ عددًا كبيرًا من أساتذة التنظير بأن من الضروري أيضًا وجود لغة فكرية أكثر بدائية، تكون مستقلّة عن لغة المرء الطبيعية، وإن

كانت أَرْشَفَةُ جزء كبير من الفكر البشري بامتياز باللغة الطبيعية ممكنة. وإذا كان ذلك صحيحًا، فإن الرموز في اللغة الفكرية لا تستطيع تحصيل مضامينها بالعرف كما تفعل رموز اللغة الطبيعية. أما إذا لم يكن المضمون الذهني مستندًا إلى الأعراف، فإلى أي شيء هي مستندة؟

قد يحلو لأحدهم اقتراح أن المحتوى الذهني لا يعتمد على أي شيء، وأن معنى أي رمز ذهني هو أحد صفاته البدائية أو الوحشية، وقد يسهم هذا الاقتراح في حل (أو ربما تحليل أو إذابة) مسألة التسويغ، غير أن المؤسف هو أنه لا يوجد إلا القليل عدا هذا يوصي به. وكما أن كلمة قرد الإنجليزية لم تعد معطوفة طبيعيًّا على القرود أكثر مما هي معطوفة على أي نمط آخر من الأشياء، فإن من الصعب الاهتداء إلى ما يلزم الحالة الدماغية التي تعمل بوصفها رمز القرد بالاقتران بالقرود بدلًا من أي نمط آخر من الأشياء، وبدلًا من ذلك، فإن الرواية المعقولة الوحيدة لكيفية قيام أي رمز ذهني بحيازة مضمونه، تشترط مبادرتنا إلى مناشدة جملة السمات العلائقية لحالات الدماغ. ولكن، أي نوع من السمات العلائقية قادر على تسويغ مضمون فكرة معينة؟

تاريخيًّا، رأى منظرون كثيرون أن من شأن الشبه أن يضطلع بدور في تفسير كيفية اكتساب الرموز العقلية لمضامينها، وهذه الفكرة كانت من حيث الجوهر المادة التي قدَّمها التجريبيون البريطانيون (من أمثال جون لوك وديفيد هيوم) عن كيفية قيام العقل بتمثيل العالم؛ فالرموز في لغة الفكر ـ الأفكار بحسب المصطلح المستخدم من قبل التجريبيين ـ تعني

ما تفعله بسبب ما تشبهه. تدل فكرة أي قرد ـ باختصار ـ على القرود؛ لأنها تشبه القرود.

توجد ـ على أي حال ـ مشكلات جدية مع هذا الكلام؛ فالشبه في المقام الأول كلي الوجود، وأي حالة دماغية تشبه جملة من الأشياء. بعض حالاتي الدماغية ستشبه بعض حالاتك الدماغية، ولكن ذلك لا يعني بالتأكيد أن حالاتي العقلية تمثل حالاتك العقلية، وكي يتحلى بأي قدر من الصدقية، يتعين على نصير هذه الرواية أن يقف على نوعية علاقات الشبه المؤكدة للمحتوى الذهني، التي أثبتت أنها بالغة الصعوبة. تتمثل مشكلة ثانية بأننا نستطيع أن نفكر بصيغ الأشياء جميعها التي لا تشبه حالات دماغية على أي نحو. بأي معنى يمكن لرموز الجمال، الحق، والعدالة أن تشبه صفات الجمال، والحق، والعدالة؟ ثالثًا، وربما على النحو الأكثر أساسية، ليس واضحًا على الإطلاق كيف يمكن لمجرد الشبه أن يفسر سبب امتلاك رمز ذهني معين للمعنى الذي يعود إليه، وحتى إذا صدف أن تكون حالة دماغية شبيهة (بنوع من أنواع المعنى النسبي) بإحدى سمات العالم، فإن الغرابة المفرطة تكمن في سبب وجوب انطواء هذا الواقع على أنه يمثل سمة العالم تلك.

حَلٌّ أكثر وعدًا بعض الشيء لمشكلة تسويغ المضمون يلوذ بعلاقات سببية. على نحو تقريبي تتمثل الفكرة بأن أي رمز ذهني يعني (أو يدل على) الحاجة أو الصفة التي تفعِّله، فإذا كان الرمز متوليًّا مهمة تحري القرود فإنه يعني القرود. وفي أي شعار فإن رمزًا معينًا يعني قردًا إذا كان منصوبًا للإطاحة من قبل القرود.

وعلى الرغم من أن هذه الرواية أكثر اتصافًا بالمعقولية من قصة الشبه، فإنها ليست بلا مشكلات؛ وبعض تلك المشكلات هي مشكلات تتقاسمها مع قصة الشبه، حيث تكافح هي الأخرى ـ مثلًا ـ لتفسير قُدْرتنا على التفكير بصفات مجردة مثل الجمال، والحق، والعدالة. سيكون نصير الرواية السببية بحاجة إلى تفسير قدرتنا على الدخول في علاقات سببية مع هذه الصفات، وأن تكون أي رواية كهذه من المسلمات أمرًا بعيدًا جدًّا عن أن يكون واضحًا. تَحَدٍّ مماثلٌ تطرحه أفكار عن أشياء غير موجودة، مثل زيوس أو شارلوك هولمز؛ لأن الأشياء غير الموجودة لا تقيم علاقات سببية. (وبالفعل فإن إحدى طبعات هذه المشكلة تطرحها أفكار عن أشياء ستوجد ـ ولكنها غير موجودة بعد ـ مثل جريدة الغد). سيكون المنظِّر السببي مطالبًا بأن يسوِّغ قدرتنا على التفكير بأشياء لم نتفاعل معها سببيًّا على مستوى أكثر بدائية من الأفكار حول أشياء سبق لنا أن تفاعلنا معها، قد تكون رواية كهذه نافذة، غير أنه لم يتضح بعد بدقة المسار الذي ستتخذه القصة.

كذلك تواجه الرواية السببية مشكلات حين يكون الأمر متعلقًا بأشياء سبق لنا أن تفاعلنا معها، وإحدى هذه المشكلات تتولد من إمكانية سوء التمثيل، علينا أن نجيز احتمال ارتكاب أحدهم لخطأ وضع دب (مثلًا) مكان قرد، أما إذا كان ذلك صحيحًا فإن نظرية المحتوى السببية تكون في خطر الانطواء على أن رمز القرد تعني شيئًا مثل قرد أو دب شبيه بدب بدلًا من قرد؛ لأن الرمز المعني منصوب للإطاحة من قبل كل من القرود والدببة التي تشبه القرود. (تذكروا أن معنى أي رمز ـ بحسب الاقتراح الذي نحن

بصدد معاينته- ليس إلا أي شيء يتسبب في تفعيله، وهذا الرمز سيتفعل من قِبَل كلٍّ من القرود والدببة)، إلا أن تلك ليست النتيجة التي نريدها، فنحن نريد- بدلًا من ذلك- أن نكون قادرين على أن نقول بأن المرء يقع في خطأ وضع الدب المموَّه بذكاء موضع أحد القرود، وتُعرف هذه باسم مشكلة الفصل؛ لأن المشكلة تتمثل بانطواء النظرية السببية على دلالة رمز القرد على قرد أو س؛ لأن أي س يمكن الوقوع في خطأ وضعه موضع قرد. ومعاينة الحلول المختلفة لمشكلة الفصل المطروحة تقع خارج نطاق هذا الفصل، أو -عمليًّا- لأي حلول للمشكلات الأخرى التي تواجه رواية المحتوى السببية. يتعين علي- بدلًا من ذلك- أن أدعوكم إلى استكشاف هذه القضايا المبهرة بأنفسكم. يكفي أن يقال إن توفير رواية معقولة لكيفية اكتساب الرموز في لغة الفكر لمعانيها يبقى تحديًا متماديًا.

كان هدفي في هذا الفصل متركزًا على تقديم نظرية الفكر الحسابية، واستكشاف - ولو باختصار - زوجين من التحديات الرئيسة التي تواجهها، غير أننا لم نطنب في الكلام عن البدائل المحتملة. دعونا نختتم هذا الفصل بالتساؤل عن احتمال وجود طرق أخرى توفر إمكانية تحقيق التفكير في منظومة فيزيائية خالصة.

مع أن الرواية الحسابية تمثل الرواية المهيمنة على مدى احتمال تحقيق التفكير في منظومة فيزيائية، فإن عددًا من الأصوات النافذة تساءلت عن مدى وجوب عكس بنية الفكر بالذات بوساطة عمليات الوظائف العصبية المؤكِّدة لها. قد تكون منهجية الفكر منبثقة، كما رأى بعضهم من عمليات وظائف عصبية غير منظَّمة أساسًا. والفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين

(Ludwig Wittgenstein) أمسك بروح هذا الاقتراح حين سأل: لماذا يتعيَّن على المنظومة أن تواصل التقدم باتجاه المركز؟ ما الذي يمنع هذا النظام من أن يخرج- مثلًا- من رحم الفوضى؟

يوجد في مضمون ملاحظة فتغنشتاين شيء يحاكي التفسيرات المعاصرة، التي تنسجم مع نظرية النظم الديناميكية وبعض أنواع الشبكات الترابطية، وهذه الآراء فيزيائية بمعنى أن لا دور فيها لوسيلة فكر غير مادية، لكنها تتباين مع نظرية الفكر الحسابية من حيث رفضها للافتراض القائل بوجوب وجود تماثل بين العمليات العصبية المسؤولة عن الفكر وبنية الأفكار التي تولِّدها هذه العمليات، وبحسب شروط فتغنشتاين، فإن هذه الآراء ترى أن نظام الفكر ينبثق من الفوضى العصبية. ومع أن عددًا قليلًا فقط من المُنظِّرين يقر هذه الآراء، فإنَّها تمثل تحدِّيًا مهمًّا لنظرية الفكر الحسابية، ولا يوجد اتفاق حتى الآن بخصوص مسألة ما إذا كانت هذه الآراء توفر بديلًا قابلًا للتطبيق لمفهوم الفكر الذي ركزنا عليه هنا.

* * *